الانتحار

ـ ٤ ـ

قال المسيَّب بنُ رافع : ومدَّ الإمامُ عينَه ، وقد رُفِعَ له شخصٌ من المجلس ؛ ثُمَّ جَلَّى بنظره ، كأنَّما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ ، كالحقِّ إذا بَطَلَ ، والصِّدقِ إذا كَذَب ، ثُمَّ ردَّ بصرَه عَلَيَّ ، كأنه يُعَجِّبُني من عجبِه ؛ ثُمَّ سَجا[١] طرْفُه ، كأنَّما أنكرَ رأيَ عينيه ، فهو يلتمسُ رأيَ قلبه . وتبيَّنتُ في وجهه انقباضاً خُيِّل إليَّ : أنَّ الشَّيطانَ جاءه بهذا الرَّجل يُفْحِمُهُ به ، يُريه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصَّالحين يتحمَّس في دينه ؛ ليرجعَ بعد ذلك أصلاً لا غِنى عنه في إنشاء قصَّةِ كُفْرٍ !

هذا هو ضيفُنا (أبو محمَّد البَصْرِي)[٢] يَتَخَوَّضُ النَّاسَ ؛ ليجيءَ ، فيحدِّثنا حديثَه في قتْلِ نفسه ، والإثْمِ بِرَبِّه ؛ فلو قيل لي : إنَّ قَوْسَ السماءِ بأحمرِه ، وأصفرِه ، وأزرقِه ، وأخضرِه قد وقع إلى الأرض ، واصطبغ من ألوانه أوحالاً ، وأقذاراً ؛ لكان هذا كهذا في تعاظُمِه ، وإنكاره ، والعجَب منه ؛ فأبو محمَّد من الرِّجالِ الحُمْسِ[٣] ؛ الَّذين لو كَفَر أحدُهم ، ثُمَّ قيل : « إنَّه كفر » ؛ لقَصَّر اللفظُ أنْ يَبلغَ الحقيقةَ ، أو يصفَ شُنْعتَها ، كما يقَصِّر لفظ الجنون عن وصف حكيمٍ تألَّى[٤] أن يعملَ عملاً يَخرجُ به من الكون ، فلا يبقى في أرضٍ ، ولا سماء ، ولا تناله يدُ الله ! إنَّ في لفظ الكفر مع ذاك ، وفي لفظ الجنون مع هذا ـ شيئاً من نفاق العقل وتأدُّبِه في أداء المعنى الأخرقِ ؛ الَّذي لا يُشْبهُهُ جنونٌ ، ولا كفر .

ونعوذُ بالله مِنْ خِذلانه ! فلقد يكونُ الرَّجلُ المؤمنُ في تشدُّده ، وإيغاله في

---

(١) « سجا » : سَكَن .

(٢) يعني المؤلف بأبي محمد البصري هذا صديقنا الأستاذ (م) ومن أجله أنشأ هذه المقالات ، وقد سبقت إشارتنا إلى حادثته ، وخبره ، وما فعل بنفسه ، فانظر كلَّ ذلك في موضعه من كتابنا (حياة الرافعي) وأكثر ما يأتي في هذا الفصل على لسان « أبي محمد البصري » فهو من قوله بحروفه إلا قليلاً من قليل . (س) .

(٣) أي : المتحمِّسين في دينهم . (ع) .

(٤) « تألى » : أقسم .

الدِّين ـ كالذي يصنعُ حبلاً يَفتِلُه فَتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق ؛ ليكونَ أشدَّ له ، وأقوى ، ثُمَّ يُجاذبه الشَّيطانُ حَبْلَه ، فإذا هو كان في الوهَن مثلَ العنكبوت اتخذتْ بيتاً في سَقْف حدَّاد ؛ فرأته يصبُّ الحديدَ المصهورَ ، يجعله سلسلةً حَلْقةً في حلْقةٍ ، فذهبتْ تحكيه ، وتُرسِلُ من لُعابها خيطاً في خيط تزعمه سلسلةً . . . !

إنَّ مع كلِّ مؤمن شيطانَه ، يتربَّص به ، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكونَ في كلِّ ساعةٍ كالَّذي يشعر : أنَّه لم يؤمن إلا منذ ساعةٍ ، فهو أبداً محترِسٌ ، متهيِّئٌ ، متجدِّدُ الحواسِّ ، مُرْهَفُها ، يستقبل بها الدُّنيا جديدةً على نفسه بين الفترة والفترة : ومن هذا حِكمةُ أن يؤذِّنَ المؤذِّنُ ، وأن تُقام الصَّلاةُ مراراً في اليوم ، فكلما بدأ وقتٌ ؛ قال المؤمن : الآن أبدأ إيماني أطهرَ ما كان ، وأقوى .

* * *

وقال الإمام : هيه يا أبا محمد ! فقال البَصْريُّ ـ وقد رأى الكراهةَ في وجه الإمام ـ : لا يُفْزِعنَّك أيُّها الشيخ ! فإنَّ الله تعالى قد يجعل ما يحبُّه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجريَ على ألفاظنا ؛ وقد نُسمِّي النازلةَ تنزل بنا خساراً ، وهي ربح ، أو نقولُ : مصيبةٌ جاءت ؛ لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تَيسَّرتْ ؛ لتبديل الفكر . إنَّما لغةُ القدَر في شيءٍ هي حقيقةُ هذا الشَّيء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيِّن من حادثةٍ لا تُصيب امرأً في نفسه إلا لتقعَ بها الحربُ بين هذه النَّفس ، وبين غرائزها . فتكونَ أعمالُ الطَّبيعة المعاديةِ أسباباً في أعمال العقل المنتصر .

وكثيرٌ من هذا البلاء الَّذي يُقْضَى على الإنسان لا يكون إلا وسائلَ من القدَر ، يُرَدُّ بها الإنسانُ إلى عالَم فكرِه الخاصِّ به ؛ فإنَّ هذه الدُّنيا عالَمٌ واحدٌ لكلِّ مَن فيها ، ولكن دائرةَ الفكر ، والنَّفس هي لصاحبها عالَمُه وحدَه . والسَّعيدُ من قرَّ في عالَمه هذا ، واستطاع أن يحكم فيه كالمِلك في مملكته ، نافذَ الأمر في صغيرتها ، وكبيرتها ؛ والشَّقيُّ من لا يزال ضائعاً بين عوالم النَّاس ، ينظر إلى هذا الغنيِّ ، وإلى ذاك المجدود(١) ، وإلى ذلك الموفَّق ؛ وهو في كلِّ هذا كالأجنبيِّ في غير بلده ، وغير قومه ، وغير أهله ؛ إذ كلُّ شيءٍ يصبح أجنبيّاً عن الإنسان ما دام هو

(١) « المجدود » : ذو الحظِّ .

أجنبيّاً عن نفسه .

لقد كنتُ ضالاً عن نفسي ، وعالَمِهَا ، فكنتُ في هذه الدُّنيا أستشعر شعورَ اللِّص ، أشياؤُه هي أشياءُ الناس جميعاً ؛ واللِّصُّ ينظر إلى أموال النَّاس بعينَي شاعرٍ مُتَحَبِّبٍ ، كَلِف . وهي تنظر إليه بعينيْ مُقاتِلٍ ، متربِّصٍ ، حَذِر .

كنتُ والله ! إن ضِقْتُ بالنَّاس ، أو وَسِعْتُهم ؛ رأيتُ في ذلك معنى من ضيق اللِّص ، وسَعَتِه ؛ هو على أيِّ حالَيه لا ينظر في أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظَّلام يتسلَّلُ في خَشْيَة ، وحذَرٍ !

وكنتُ نَزِقاً ، حديدَ الطَّبع ، سريعَ البادرة . ومَن فَقَدَ عالم نفسه ، وكان في مَثَلِ اللِّصِّ ؛ الَّذي ذكرتُ ؛ فإنَّ هذه الطِّباع تكون هي أسلحته ، يَدْفَع بها أو يعتدي . وما قطُّ تمَكَّن إنسانٌ من نفسه ، وأحاط بها ، ونفذ فيها تصرُّفه ؛ إلا كان راضياً عن كلِّ شيءٍ ؛ إذ يتَّصل من كلِّ شيءٍ بجهته السَّامية ، لا غيرها ، حتَّى في اتصاله بأعدائه . من النَّاس ، وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ، ولا هؤلاء إلا امتحاناً لفضائله ، وإثباتاً لها . وقد يكون عدوُّك في بعض الأمور عيناً لك في رؤية نفسك ؛ ففيه بَركةُ هذه الحاسَّةِ ، ونعمتُها .

ولو نحن كنَّا مسلمين إسلامَ نبيِّنا ﷺ ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه ؛ لأدركْنا سرَّ الكمالِ الإنسانيِّ ، وهو أن يَقرَّ الإنسانُ في عالَم نفسه ، ويجعلَ باطنَه كباطن كلِّ شيءٍ إلهيٍّ ، ليس فيه إلا قانونُه الواحدُ المستمرُّ به إلى جهة الكمال ؛ المرتفعُ به من أجل كماله عن دوافع غيرِه ؛ فنَظَرُ الإنسان إلى نقص غيره هو أوَّلُ نقْصه . والمؤمنُ كالغصن ، إن أثمر ؛ فتلك ثمارُ نفسه ، وإن عَطَلَ ؛ لم يَشْحَذْ ، ولم يحسُدْ ، واستمرَّ يعمل بقانونه .

ولقد نشأتُ في مَغْرِسٍ كريمٍ ، على صورةٍ من الحياة تُشبه صورَة الثَّمرة الحُلوة ، اجتمع لها من طبيعة مَغرسها ، ومَرْتَبتها ما تتعيَّن به من حلاوةٍ ، ونَكْهةٍ ومَذاقٍ ، فلمَّا عَقَلْتُ ، وعرفتُ النَّاسَ بعدُ فجاريتُهم ، وخالطتهم ، رَأيتُني منهم كالتفَّاحة ملقاةً في البصَل .. وكانت التُّفاحةُ حمقاءَ ، فزادت حُمقاً ، وكانت حديدةً ، فزادت حِدَّةً ، وظنَّت : أنَّ الحكمة قد مُسِخَتْ في الدُّنيا وبُدِّلتْ إذ خُلِقت البصَلَة بعد أن خلقت التُّفاحة ؛ وما علمَت الخرقاءُ : أنَّ الكمالَ في هذه الحياة مجموعُ نقائص ، وأنَّ للجمال وجهين : أحدُهما الذي اسمهُ : القُبْح ، لا يُعرف

هذا إلا من هذا ، وأنَّ البصلة لو أدركتْ ما يريد النَّاسُ من معناها ، ومعنى التفاحة ؛ لَسَمَّتْ نفسَها هي التُّفاحَة ، وقالت عن هذه : إنَّها هي البصلة !

ولما رأتْ تفَّاحتي أنَّها عاجزةٌ أن تجعلَ الشَّجرَ كلَّه في مثل مرتبتها ، ومغرسِها ؛ قالت : إنَّ الأمرَ أكبرُ من طبيعتي ، وما دام سرُّ الكون مُغْلَقاً ؛ فلا تعريفَ له إلا أنَّه سِرٌّ مغلَقٌ ، ولْيَبْقَ كلُّ شيءٍ في طبيعة نفسه ، فعلى هذا يَصلُح كلُّ شيءٍ ، ولو في نفسه وحدَها .

* * *

قال أبو محمد : ولكن بَقِيَتْ وَحْشةُ الدُّنيا وجَفوَتُها ؛ إذ لم أكن اهتديتُ إلى عالَمي ، ولا تأكَّدَتْ عقيدتي بنفسي ؛ فكان كلُّ ما حولي مُنْبجساً في رُوحي بِشرِّه ، وكانت الدُّنيا بهذا كالمتطابِقَةِ في رأيي على معنى واحدٍ ، وزادني : أنِّي كنتُ رجلاً عَزَباً متعفِّفاً ؛ وما أشبَه فراغَ الرُّجولةِ من المرأة بفراغ العقل من الذَّكاء ؛ هذا هو العقلُ البليد ، وتلك هي الرُّجولةُ البليدة !

والمرأة تُضاعِفُ معنى الحياة في النَّفس ، فلا جَرَمَ[1] كان الخَلاءُ منها مضاعَفَةً لمعنى الموت ؛ عَلِمَ هذا مَن عَلم ، وجَهلَه مَنْ جَهِل ، فكنت أعيش من الكون في فراغٍ ميِّتٍ ، وكنت أُحِسُّ في كلِّ ما حولي وحشةً عقليةً ، تُشعرُني : أنَّ الدُّنيا غيرُ تامَّةٍ ؛ وكيف تتمُّ في عيني دنيا أراها غيرَ الدُّنيا ؛ التي في قلبي ؟

وعرفتُ أنَّ كلَّ يومٍ يمضي على الرَّجل العَزَب المتعفِّف لا يمضي حتَّى يهيىء فيه مرَضَ يومٍ آخرَ . ومن هذه الأيام المريضةِ المتهالِكة ، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحيِّ الذي نَقَض آيَتها ، وافْتَاتَ عليها ، وجَعَلَ نفسَه كالإله ، لا زوجةَ له ، ولا صاحبة !

وايْمُ الله ! إنَّ الشيطانَ لا يفرح بالرَّجل الزَّاني ، وبالمرأة الزَّانية ما يَفرح بالرَّجل العَزَب ، وبالمرأة العزباء : لأنَّه في ذينك رذيلةٌ في أسلوبها ، أمَّا في هذين فالشَّيطانُ رذيلةٌ في أسلوب فضيلة . . ! هناك يُلِمُّ الشَّيطانُ ، ويمضي ، وهنا يأتي الشَّيطانُ ، ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشتُ بقلبٍ مُغلَقٍ ، وعقلٍ مفتوحٍ ، وليتني كنت جاهلاً مُغلقاً

(١) « لا جرم » : لا بُدَّ ، ولا محالة .

عقلُهُ ، وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !

ومضت أيامي يَضْرِبُ بعضُها في بعضٍ ، ويُمرِضُ بعضُها بعضاً ؛ حتَّى انتهت مُنتهاها ، وجاء اليومُ المُدْنَفُ[١] الهالكُ الذي سيموت . . .

أصبحتُ ، فقلت لنفسي : كم تعيشين ـ ويحكِ ـ في أحكام جسدٍ مُختلٍّ ، لا تَصْدُقُ أحكامُه ، وما أنتِ معه في طبيعتك ، ولا هو معكِ في طبيعته ، ففيم اجتماعُكما إلا على بلائي ، ونكَدي ؟

لم تصطلحا قطُّ على واجبٍ ولا لذَّةٍ ، ولا حلالٍ ولا حرامٍ ؛ فأنتما عدُوَّان ، لا همَّ لكليهما إلا إفسادُ المسرَّةِ ؛ الَّتي تَعْرِضُ للآخَر . وما أدري بمن يسخَرُ الشَّيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذي يُوَسْوِسُ باللَّذاتِ يتمنَّى اقترافَها ، كالفاجر الذي يُواقِعُها ، ويقتحمُها !

ويحكِ يا نفس ! إنِّي رأيت هذه الدُّنيا الخرقاءَ لم تُقدِّم لي إلا رغيفاً ، وقالت : املأ بهذا بطنَك ، وعقلَك ، وعينيك ، وأذنيك ، ومشاعرَك . آه ، آه ! مُمْكِنٌ واحدٌ معه أربعةُ مستحيلات[٢] ؛ إنَّ هذا لا يُلْبثُني أن يذهبَ منِّي بالأربعة التي تُمسِكني على الحياة : الأملِ ، والعقلِ ، والإيمانِ ، والصَّبر .

لقد استوى في هذه الكآبة صغيرُ همِّي ، وكبيرُه ، وما أراني إلا قد أشرفتُ على الهلَكةِ التي لا باقيةَ لها ، فإنَّ وجهي المتكلِّحَ ، المتقبِّضَ يَدُلُّ منِّي على أعصاب مُحتضرَةٍ نَهَكتْها أمراضُها ، ووساوسُها ، وإنَّما وجهُ الإنسان في قُطوبه ، أو تَهلُّلِه هو وجهُه ووجهُ دنياه تَعْبِسُ ، أو تبتسِم .

وتالله ! لقد عجزتُ عن كِفاح الدُّنيا بهذه الأعصاب المريضةِ الواهنة ، فإنَّ حِبَالةَ الصَّيد ـ صَيدِ الوحش ـ لا تكون مِنْ خَيط الإبرة . . . ! وأراني أصبحت كإنسانٍ حجَريٍّ ، ليس في طبيعته الالتواءُ إلى يمينِ الحياة ، ويسارِها ؛ ويُخَيَّلُ إليَّ من صلابتي : أنِّي الأسد ، ولكنِّي أسدٌ مِنْ حجَر ، لا تَفرِضُ قوَّتُه الفرارَ منه على أحدٍ !

* * *

---

(١) « المدنف » : أدنفه المرض : نهكه حتى أشرف على الموت ، فهو : مُدْنِفٌ ، ومُدْنَفٌ .

(٢) الرغيف يملأ البطن ، فهذا هو الممكن ، ولكنَّ عمله في الباقيات مستحيل .

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسي في هذا الحِوار كالميِّتة ، لا تُجيب ، ولا تعترض ، ولا تُنكِر ، وكنتُ أظنُّها تُراودُني على الحياة ، أو تردُّني عن غَوايتي ؛ فملأني سكونُها جزعاً ، وأيقنتُ : أنَّ الشيطانَ بيني وبينها ، وأنَّه أخذ بمَنَافذِها ، فأردتُ الصَّلاةَ ، فَثقُلْتُ عنها ، ورأيتُني لا أصلُح لها ، بل خُيِّل إليَّ : أنِّي إذا قمتُ إلى الصَّلاة ؛ فإنَّما قمتُ ؛ لأتهزَّأ بالصَّلاة !

وجعل الشَّيطانُ يأخذني عن عقلي ، ويردُّني إليه ، ثُمَّ يأخذني ، ويردُّني ، حتَّى توَهَّمتُ : أنِّي جُنِنْت ، وكأنَّما كان يريد اللَّعينُ بقيَّةَ إيماني ، يجاذبُني فيها ، وأُجاذبه ، فلم ألبثْ أن مسَّني خَبالٌ ، وألقيتُ هذه البقيَّةَ في يديه !

ثُمَّ أفقتُ إفاقةً سريعةً ، فرأيت (المصحفَ) يَرقُبني قريبٌ ، فعُذْتُ به ، وعطفتُ عليه ، وقلتُ له : امنع الضَّربةَ عن قلبي . بَيْدَ أنِّي أحْسَسْتُ : أنه خَصمي في موقفي ، لا ظَهيري ؛ كأنِّي جعلتُه مصحفاً عند زِنديقٍ ، فكان كلُّ إيماني الَّذي بقي لي في تلك اللحظة : أنِّي ضَعُفْتُ عن حَمل المصحف ، كما ثَقُلْتُ عن الصَّلاة ، فبقي الطَّاهر طاهراً ، والنَّجسُ نَجِساً .

ولم تكن نفسي فيَّ ، ولا كنتُ فيها ؛ فرأيتُ الدُّنيا على وجهٍ لا أدري ما هو ؟! غير أنَّه هو ما يمكنُ أن يكونَ معقولاً من تَخاليط مجنونٍ ، عقلُه من ساعةٍ : بقايا شعورٍ ضعيفٍ ، وبقايا فهمٍ مريضٍ ، تتَصَاغَرُ فيهما الدُّنيا ، ويَتَحَاقَرُ بهما العقل .

فلمَّا انتهيتُ إلى هذا ؛ لم أعقلْ ما عملتُ ، وكانت المُوسى قد أصابت من يدي عِرْقاً ناشزاً ، مُنْتَبِراً ، ففار الدَّمُ ، وانفجر منه مثلُ اليَنْبُوع ضُرِبَ عنه الصَّخرُ ، فانشقَّ ، فانبثَق .

وتحقَّقْتُ حينئذٍ : أنَّه الموتُ ، فرأيت . . !

* * *

قال المسيَّبُ راوي القصَّة : وتجهَّم[1] وجهُ الرَّجل ، فأطرق ، وسكت ، وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ ، فأظلم بغتةً عندما قال : « فنظرْتُ ، فرأيت » .

وارتجَّ المسجدُ بصَيحةٍ واحدة : فرأيتَ ماذا ؟! رأيتَ ماذا ؟!

---

(١) « تجهم » : عبس .

وبَعَثَتِ الصَّيحةُ أبا محمَّد ، فقال : رأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرفَتْ من المصحف تنظر إليَّ كالعاتبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطَّالع ، لو تمَثَّلَتْ آياتُ الجنَّةِ كلُّها وجهاً ؛ لكانته في نَضرَته ، وبشاشته . وغَمْغَمَت[1] الوجوهُ الثَّلاثةُ بكلماتٍ لم أسمعْ منها شيئاً ، ولكنَّ نظرَها إليَّ كان يؤدِّي لي معانيَها ، وكأنَّها تقول : « أكذلك المؤمن . . . ؟! » .

ثُمَّ غابت ، وتخلَّت عنِّي ، وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى ، كأنَّها نقائضُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطها ، لو تمثَّلت آياتُ الجحيم كلُّها وجهاً ؛ لكانته في نُكْرِه ، وهَوْله ، وخُيِّل إليَّ أنَّ الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَر المصحف ، ففكَّرتُ ، فوَقَعَ لي ممَّا قام في نفسي من اللَّعنة : أنَّها : ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد : ١] .

وطَمَسَ الظَّلامُ هذه الرُّؤيا ، وتَغيَّمتِ الدُّنيا ، فأيقنْتُ : أنَّ آثامي قد أقبلتْ عليَّ ظُلمةً بعد ظُلمَةٍ ، والْتَمَعَ شيءٌ أحمر ، فنظرتُ فإذا الدَّمُ يتخايَلُ في عينيَّ ، كأنَّه شُعَلٌ تتلوَّى ، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع ، وحسبتُها طرائقَ ممتدَّةً لرُوحي ، تذهب بها إلى الجحيم .

وماتت كلُّ خواطري بعد ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيتْ حيَّةً ، تأكلُ في قلبي أكلَ النَّار ، وهي : « كيف تجرأتُ ، فوضعتُ بيني وبين الله حُمْقي ؟! » .

* * *

ويقولون : إنَّ أختي قد رأتني أتَشَحَّطُ في دمي[2] ، فصاحت ، وجاء النَّاس على صوتها ، وكان فيهم طبيبٌ ، فبعد لأيٍ ما ، استطاع حَبْسَ الدَّم ، واحتال حيلتَه حتَّى أسَفَّ الجُرحُ دواءً ، وضَمَدَه ؛ فجعلتُ أثوبُ نَفَساً بعد نَفَس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . .

ثُمَّ طافت الحياةُ على عينيَّ ، ففتحتهما ، فإذا الأشياءُ تبدو لي ، وليس فيها حقائقُ ، ولا معانٍ ، كأنَّها تَتَخَلَّقُ جديدةً تحت بصري ، وكأنَّها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

(١) « غمغمت » : غمغم في كلامه : لم يُبِنْهُ .

(٢) « أتشحط في دمي » : أتخبط فيه .

وتماثلْتُ شيئاً بعد ساعاتٍ ، فأحسستُ أنَّ نفسي قد رجعتْ إليَّ ساخرةً منِّي تقول : كيف رأيتَ عمَلَ العقل أيُّها العاقل ؟

وبدأت الحياة تتجدَّد ، فأقسمتُ بيني وبين نفسي أن أجدّد إيماني بالله . ولم أكد أفعل حتَّى أحسستُ : أنَّ قوَّةَ الوجودِ كلَّها مستقرَّةٌ في روحي ، وخُيِّل إليَّ : أنِّي أنا وحدي القويُّ على هذه الأرض قُوَّةَ جبالِها ، وصخورها ، على حين كان جسمي ممدَّداً كالميِّت لا يتماسَكُ من الضَّعف !

فأيقنتُ حينئذٍ : ما أعرفه قطُّ من الدُّنيا ، ولم أشعر به قطُّ في الحياة ، ولم يأتني به علمٌ ، ولا فكر . أيقنت : أنَّها مُعجزةُ الإيمان الجديد الغضِّ ، المتَّصِل بالله لتوِّه ، كإيمان الأنبياء دون أن تلمَسه شهوةٌ ، أو تعترضَه خاطرةٌ ، أو تكدِّرَه ذرَّةٌ واحدةٌ من فكرٍ أرضيٍّ دَنِسٍ .

* * *

قال المسيّب : ثُمَّ جلس المتحدِّث ، وكان النَّاسُ في آخر كلامه كأنَّما غادروا الدُّنيا ساعةً ، ورجعوا إليها على مثل حالته ، ومثلِ إيمانه ؛ فسكت الإمام ، ولم يتكلَّم ؛ ليدعَ كلَّ نفسٍ تُكلِّمُ صاحبها .

* * *